غربة الفضاء ومقاومة الرواية

خولة حمدي في معركة الوعي: بين الاعتزاز بالهوية وحوار العقل

Alienation of space and resistance to the novel
Khawla Hamdi in the battle of awareness: between pride in identity and dialogue of
the mind

د. جميلة قوجيل*

جامعة البليدة 2 - لونيبي علي (الجزائر)

dj.goudjil@gmail.com

تاريخ القبول: 2022/01/23

تاريخ الاستلام: 2021/11/22

ملخص:

نقل السرد في الرواية رؤى وإشكالات ثنائية الأنا والآخر التي مثلت واقعا ثقافيا فرض ذاته. هذا الآخر المختلف دينيا وفكريا وعرقيا، فعبر هذا الجنس الأدبي أحسن تعبير عن قضايا الهوية والذات المفقودة في وجه الآخر المستعمر أو المستلب أو المسيطر اقتصاديا وسياسيا وفكريا وثقافيا.

وممن توسل بهذا الجنس واتخذته مطية للرد على الآخر وإثبات الذات والتأسيس لها تأسيسا خطابيا خولة حمدي في مشروعها الذي نحاول أن نبينه في هذا البحث من خلال عملها الروائيين " في قلبي أنثى عبرية" بما يثيره من قضية الأقلية اليهودية من العرب في علاقتهم بالأكثرية المسلمة. ومن خلال رواية " غربة الياسمين" بما تفرضه هجنة الفضاء من خطابات متصارعة في عالم الهجرة تحاول الروائية أن تعبر عنها وتؤسس لخطاب المواجهة الذي تخوضه عن طريق العقل، في خطاب سردي إقناعي، يظهر الهوية، ويفضح المضمرة، ويصحح الصورة المكرسة.

الكلمات المفتاحية: الهوية، الرد بالكتابة، الهجنة، خولة حمدي.

Abstract:

The narration in the novel conveyed the problem of the ego and the other, which represented a self-imposed cultural reality. This literary genre best expressed the issues of identity and the lost self in the face of the colonizing, usurping or controlling other. Khawla Hamdi in her project, which we try to show in this research through her two novelistic works, "In My Heart is a Hebrew Female," which raises the issue of the Jewish minority. Through the novel "The Jasmine Strange", with the conflicting discourses imposed by the hybrid space in the world of migration, the novelist tries to express and establish the discourse of confrontation that she engages through the mind, in a persuasive narrative discourse that shows identity, and exposes the implicit.

Key words: Identity, written response, hybridization, Khawla Hamdi.

* د. جميلة قوجيل.

1. مقدمة:

تخلق الرواية عوالم ألفة في عالم يعجّ بالصراع، وتحاول أن تصنع مساحة للحوار وللتسامح بعد أن تفضي بما يختلجها من أزمات، وتبثّ خطابها بما يتضمّن من خطابات الآخرين المتناحرة. هذه الخطابات التي تصنع مركزا، وتدّعي هامشيّة ما خرج عنها ممارسةً هيمنة وسلطة على الأقلّيّة. وتحاول الرواية أن تنقل ذلك باعتبارها نتيجة بنية اجتماعية مهيمنة تتمظهر على مستوى الخطاب. وبهذه الخاصيّة فقد مثّلت مركزا ويؤرة للدراسات الثقافيّة التي تحفل بالكشف عن هيمنة الغالب على المغلوب، حيث اشتغلت الرواية كمقاومة ثقافية للخطاب المهيمن، لتسمع أصوات الأقلّيّات المهمّشة، بما لهذا الجنس الأدبي من أهميّة على مستوى التجربة الإبداعية المعاصرة.

تأكّد من خلال المعاينة والدّرس أنّ النصّ في حدّ ذاته - رواية أو غيرها من الأجناس - نتيجة من نتائج بنية فكرية وإيديولوجية مهيمنة في المجتمع، تسعى لتحقيق ذاتها بما تلفظه من رؤى الآخر بتشدّده الديني والطائفي، وهو محاولة لتصحيح رؤية الأنا للآخر في ظلّ عالم واحد يفترض أنّه يسع الجميع، لتشتغل الكتابة فعلا ثقافيا مقاوما تحقّقه الرواية بامتياز لارتباطها بالهويّة.

اخترت من هذا الجنس الأدبي كتابات خولة حمدي في عمليها الروائيين الأنفي الذكر بما تطرحه من قضايا التهميش والأقلّيّات وعالم الهجرة، هذه العوالم التي تفتح مصراعيها أمام قضايا الأنا والآخر، والتي فرضت نفسها واقعا على السّاحة الأدبيّة، كما فرضتها على السّاحة الاجتماعيّة والسياسيّة والإنسانيّة، فكيف تنظر خولة حمدي للآخر المختلف دينيا، وما موقفها من عرب اليهود في علاقتهم بالمسلمين؟ وما هي قراءتها لوضع المهاجرين المغاربة والعرب عموما في عالم يحتقرهم ويرفضهم؟ وكيف تطرح ثمّ تعالج مسألة الهوية في عالم يسحق الآخر، ولا يعترف به بل يتهمه بالإرهاب والمهميّة؟ وما الذي تقترحه كحلّ للأقلّيّة المهاجرة والمهمّشة، أم أنّها تكتفي بنقل الصورة؟

1- سرد الهوية وإعادة رسم خارطة السّلطة والعالم خطايا:

انتقل علم السرد من النظرة البنيوية المغلقة إلى اعتباره صوتا للعلاقات الاجتماعيّة والمعاني الثقافيّة ذات الصبغة المحليّة، ومثّلت دراسة ميخائيل باختين لروايات دوستويفسكي التفاتا وتركيزا على كون السرد ليس مجرد سجلّات للأدب فحسب، بل سجلّات للحياة الاجتماعيّة نفسها، وهي سجلّات تمنح السرد إمكانيات غير قابلة للانتهاء وزخما إنسانيا لا يمكن حدّه. وقد اكتسب ذلك بفضل قدرته على الانفتاح على احتمالات لا نهائيّة، فهو فائض إنساني غير محدد وفق تعبير باختين، " لأنّ الحياة تفتح دائما خيارات، خيارات واقعية ومتخيّلة تشمل معاني وهويات، وتستدعي تفسيرات أكثر حتى ممّا يمكن أن يعبر عنه عدد كلّ قصص الحياة الممكنة. في حياة كلّ شخص هناك دائما إمكانيات غير محقّقة واحتياجات غير محقّقة، خيارات للهويّة لم يتمّ إشباعها"¹. ومن خلال ذلك تظهر إمكانيّة الرواية لاحتواء قضايا الهويّة بثرائها واتّساعها وعدم اكتمالها، على خلاف الملحمة والدراما، فهي " مختبر من الاحتمالات بالنسبة لبناء الهويّة الإنسانيّة"².

طرحت إشكاليّة الهويّة بصورة ملحّة من منظور ثقافيّ في فلسفات ما بعد الحداثة من حيث تحديد ماهيتها ومفهومها وحدودها، حيث "هناك تصورات ومشاعر جماعية تستقرّ في اللغة والأنظمة، العادات، القيم... إلخ، ويمكن

الرجوع إليها تحدّد هوية الشعوب والأمم³. وقد ارتبطت الهوية إشكالية الأنا والآخر وطرحت بحدة العلاقة بينهما خاصة بعد أن ظهر في العصر الحديث صراع الحضارات بعد سقوط الاتحاد السوفياتي وتغيّر موازين القوى، وتقسيم العالم إلى قطبين متصارعين: الحضارة الغربيّة التي تهيمن عليها الولايات المتحدة الأمريكيّة من جهة، وباقي العالم المسيطر عليه من جهة أخرى. ومثّلت مجموعة عوامل دوافع لتأجج هذا الصراع، ودفعه إلى الواجهة بعد أن كان في حالة خمود بعد الحرب العالميّة الثانيّة، في مقدمتها أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م التي شكّلت الدافع الظاهريّ لتأجيج هذا الصراع، والانطلاق من أجل الدّفاع عن مصالح هذه القوة المهيمنة.

وتعدّ العولمة والبحث عن قيم عالمية مشتركة دافعا آخر إلى طرق إشكالية الأنا والآخر، حيث ظهر السعي إلى التوحيد بين الديانات والحضارات التي تجمعها في الحقيقة قيم مشتركة كالحب والصدق والأمانة والوفاء، وبذلك برزت على السّاحة دعوة لتبني الكرة الأرضية جمعاء حضارة إنسانية واحدة، ولكنّ الواقع يظهر الاختلاف في سلّم القيم بين هذه الحضارات من مجتمع إلى آخر. كما يعدّ الخطاب الديني المتعصّب من أهمّ الدوافع إلى إثارة إشكالية الموقف من الآخر، بما يعتمد عليه من احتكار الحقيقة ورفض للحوار وإقصاء للآخر⁴.

كما ظهر البحث في الهوية نتيجة الشعور بالخوف، وعدم الأمان والخطر على الذات، وعلى مرتكزاتها في إطار الحضارات المتصارعة، لذا اهتمت بها الشعوب المتحررة في العصر الحديث لتكون متكأ، فهي " ما يصمد من الإنسان عبر الزمن، إذ تلازمه مكونة شخصيته، ومحددة معاملة بشكل ثابت، ممّا يمنح إبداعه طابعا خاصا، فلا يكون مسخا للآخرين، لهذا تعدّ شرطا ملازما للفرد، يؤثر في الجماعة، ويمنحها سمة خاصة بها، لذا لا نستطيع فصل " الأنا" عن " النحن" لأنّ الهوية تحقّق شعورا غريزيا بالانتماء إلى الجماعة والتماهي بها، فتتبادل معها الاعتراف"⁵. في هذا الإطار تظهر إشكالية الهوية عند الأقليات التي إمّا أن تلتف حول نفسها، وتتوقع ضمن ثوابتها، وهي مع ذلك تكون مجبرة في بعض المواقف على الاختلاط والتعامل مع الآخر في حذر وتوجّس، أو أن تختار الانفتاح. إنّ النظرة الضيقة للهوية تحولها إلى " نوع من التحزّب والتعصّب، أي إلى انغلاق على الذات ورفض الآخر..."⁶، فهل الحفاظ على الهوية هو الالتفاف على الذات وإقصاء الآخر، أم الانفتاح الواعي والحوار مع الآخر؟ حيث " الانفتاح على الحضارات الأخرى والحوار معها يبيث الحيوية في مكونات الهوية، فتتأى عن السجال، ويحلّ التفاعل الحصب محل الانغلاق والتأثر الشفاف والتّفهم محل الكراهية"⁷. هذا ما تطرحه الروايتان المختارتان بما نثيره في هذه الورقة من خلال موضوع الاعتراّب عبر قضيتين تمثّلانه هما الأقلية اليهودية في زواجها بالمسلمين والهجرة.

ليس السرد عملية فضفضة أو ترتيب وتأنيث لعناصر بناء متخيل فحسب، وإمّا هو فعل مقاومة وفضح لممارسات الآخر الذي يحتكر السلطة. وهذا ما أكّده إدوارد سعيد في كتابه " الثقافة والإمبريالية" رابطا بين المتلازمين اللتين تشكّلان قطبي رحى في العصر الحديث، تعمل عملها كتلازمية في أرض المستعمر، حيث استُغل السرد وسيلة لتفرض الإمبراطورية أفكارها، وكان آلة خطابية تتوسّل اللّغة لتوطيد هيمنتها. ومثّل إدوارد سعيد بمجموعة روايات غربيّة لهذا

الاستغلال ليثبت الجانب الإمبريالي لهذا الجنس الأدبي، "إنّ السردية نفسها هي تمثيل القوة، وغائيتها مرتبطة بالدور العالمي للغرب"⁸.

ولكن مرحلة ما بعد الامبريالية حملت إلى كتاب العالم الثالث وعيا ثقافيا بالمقاومة وضرورة التغيير، فمضوا يحملون "ماضيهم في أعماقهم ندوبا لجراح مذلة، وتحريضا على خلق ممارسات مختلفة، ورؤى للماضي تملك الطاقة على التنقيح، وتنزع نحو مستقبل ما بعد استعماري، وتجارب قابلة بإلحاح لإعادة التأويل والتوزيع والمركزة، فيها ينطق الأصلاحي الذي كان صامتا في السابق، ويمارس الفعل على أرض استعادها كجزء من حركة مقاومة شاملة من المستعمر"⁹.

تلت هذه المرحلة مرحلة صنع الذات، والتبصر بها والوعي بمقوماتها وكيونتها، وهي مرحلة تأسيسية مناهضة للإمبريالية، ظهر في إطارها الحديث عن الشعوب المستعمرة وحقوق الأقليات والمهمشين، وتعلقت بقضايا الهوية التي ترتبط ارتباطا وثيقا بعملية السرد، إذ تناط له مهمة التوعية وفضح الدسائس، وترميم الذات وتكوينها عن طريق الكتابة ردًا وفعلا ثقافيا مقاوما لحمل الآخر على الاعتراف بجرائمه، وبما همّشه من تواريخ وشخصيات وأفكار وحقائق.

هذا السعي الجاد في معركة الوعي والتحرير الذي أطلق عليه إدوارد سعيد مصطلح "الرحلة إلى الداخل"¹⁰، على الرواية أن تضطلع فيه بوظيفة جدية وحاسمة - أكثر من أي وقت مضى - في وعي الشعوب وتاريخها، وصناعة حضارتها في إطار صراع الحضارات والعملة والتعصب، والتطرف ضد المركزية الغربية، والشّر الأبيض على قول روجي غارودي، لتكون جديدة بحق بأن تكون سردية مضادة.

فالرواية إذن في ظلّ هذا الصراع الحضاري ليست مجرد فضفضة، بل بناء وصناعة للذات وللعلم، حيث السرد "وسيلة مناسبة بصورة فائقة لاستكشاف الذات أو بشكل أكثر دقة، بناء الذوات في سياقات ثقافية زمنية ومكانية.. الاحتمالية الحقيقية لهوية الإنسان مرتبطة بالمفهوم الحقيقي للسرد وسمته"¹¹. ومن منظور أنثروبولوجيا الأدب يرى ايزر أنّ الأعمال الخيالية مرآة لقدرة الإنسان على تقويض القيود، وسيلة لغوية تتوسل السرد لإضفاء صبغة ذاتية على العالم بما يقدمه من رؤية إنسانية مرنة ومنتفحة¹².

فهل استطاعت الرواية العربية عند جيل الشّباب على وجه التّحديد أن تكون في مستوى هذا التبصر والوعي، ليكون الخطاب رفضا للتّهميش، وآلية للتحرير وتغيير خارطة السلطة القائمة للأقليات؟ خاصة أنّ الروايتين المختارتين للروائية التونسية خولة حمدي تشتغل فيهما على تيمة الاغتراب عند المهاجرين والأقلية الدينية، وقضية الزواج المختلط بين المسلمين واليهود، فهل استطاعت الروائية أن تنقل إشكالات المهمشين والمغتربين ضمن رؤية تمجد المركز، وتطرح ما عداها، وتحسّس القارئ بها وتطرح وجهة نظرها، أو تقدّم بديلا لهذه الأزمات التي يمرّ بها الإنسان العربيّ تحت سيطرة الآخر؟

نستعين في هذا الطّرح بما قدمه ميخائيل باختين عن تعدّد الأصوات، لما تسهم به من آليات للكشف عن الأنا وعلاقته بالآخر قمعاً أو تهميشاً أو اضطهاداً، وهذا ما لمسناه على مستوى الروايتين، ونلجأ إلى قضية التمثيل الأدبيّ

وقضايا الغيرية. كما لا ينحصر التحليل في نسقيّة النص وإغلافه بل يمتدّ إلى سياق تشكّله، وهذا ما يسعفنا به مجال تحليل الخطاب التقدي أو دراسات الخطاب النقديّة كما يفضل أن يسمّيه فان ديك.

خطا تحليل الخطاب خطوات ذات شأن خارج حيزّ النظرة النسقيّة المغلقة مستعينا بالمقاربات السوسولوجيّة للأدب التي مهّد لها باختين، جامعا بين مقولتين تبدوان متعارضتين للوهلة الأولى: النصّ كعلامة لسائيّة محضة، والنص كعلامة اجتماعية إيديولوجية. لتعلي دراسات الخطاب النقدية على يد رائدها ومؤسسها فان ديك من شأن البعد السوسولوجي للخطاب، كاشفة عن المضمّر والمهمش خارج النظرة المركزيّة. إذ هي "حركة علميّة مهتمة -على وجه التّحديد- بتكوين النظرية والتحليل النقدي للخطاب الذي يعيد إنتاج سوء توظيف السلطة وعدم المساواة الاجتماعيّة، فالمهمّة المركزيّة لدراسات الخطاب النقديّة تكمن في دراستها التفصيليّة لمفهوم السلطة"¹³.

تشتغل خولة حمدي على موضوع الفضاء الهجين وغربة المكان في كلا العملين، لتطرح أسئلة الهوية، ويستلزم الحديث عن الهوية طرح قضية الأنا في علاقته بالآخر، وهذا ما يكشف عن مضمّرات في الخطاب، وسوء استعمال للسلطة بمختلف أصنافها لينتج عنها التّهميش والقمع على مستوى العلاقات الاجتماعيّة. هل استطاعت الرواية أن تضع تصوّرا عن ثقافة التّسامح الإسلامي، وتجاوز الأديان والتعايش الإنسانيّ بين اليهود العرب والمسلمين، وأن تكون جنسا مقاوما يردّ على تطرّف الآخر، وعلى ما يسم به الأنا المسلم؟ هل كرست النظرة الدونيّة البربريّة إلى المهاجر العربي، أم قدّمت تصوّرا مخالفا للعربيّ المتفوق علميّا وشخصيّا باعتداده بثوابته ورؤيته للحياة؟

2- الأقلية الدينيّة والزواج المختلط في " في قلبي أنثى عبرية":

تتمركز الرواية حول التّشدّد الدينيّ الذي يقصي الآخر المختلف، حيث تظهر العلاقات الاجتماعيّة وجود تعايش سلمي، ولكن الانغماس في هذه العلاقات، والاقتراب منها يظهر العنصرية والعداء والتربص بالآخر. وهذا ما تظهره خولة حمدي للمتلقّي معيدة خطايا لترتيب سوء توظيف السلطة المتمثلة في المعتقدات الدينية التي تتجلى في ممارسات اجتماعية عنصرية، تقصي الآخر ولا تقيم تفرقة بين اليهودي والصهيونيّ. انطلقت عملية إعادة رسم خارطة هذه السلطة في الرواية بدءا بالعنوان - العتبة الأولى للنص- الذي يחדش رؤية الأنا المسلم منذ الوهلة الأولى، ويكسر متوقّعه من خلال صوت الأنا الداخلي الذي يصدح برأيه في ميله العاطفيّ القويّ لهذه الأنثى العبرية. ونلاحظ بكسر النمط المكرّر لصورة اليهودي عند المسلم الانتقال من الكراهية والإقصاء إلى عاطفة نقيضة هي الحب.

تدور أحداث الرواية حول فتاة مسلمة تدعى ربما تعيش في كنف عائلة يهودية في مدينة جربة التونسية، التي يسكنها اليهود القادمون من المشرق منذ زمن، وفي هذا المكان تجاور المعابد والكنائس المساجد كما يجاور المسلمون اليهود. وفي هذا الفضاء الهجين الذي يتصوّره القارئ تفتح الرواية في صفحاتها الأولى لتنتقل صورة مغايرة للمتوقّع، تمثّلها شخصية المرّي جاكوب الذي حرص على تطبيق وصية والدتها التي كانت مدبرة منزله باحترام دينها. هذا الاحترام الذي تمظهر في مزاولته لأخذها إلى المسجد كلّ جمعة وعدم التّدخّل في معتقداتها. وخلال اصطحابه لها

تنال الزخرفة وال عمران الإسلاميان إعجابه، لكنّه إعجاب لا يتجاوز النّظر، حيث لم يتجرأ أن يدخل مكان عبادة المسلمين لما تشكّله سلطة المجتمع اليهودي عليه من ضغط، فلا يسلم من تلميح أو تجريح. هذه السّلمة الاجتماعيّة التي قابلت العلاقة بين العائلتين المسلمة في حياة والدتها والعائلة اليهودية، بالسخرية أو الحسد، ف"لم يكن اختلاف الديانة ليغيّر في الأمر شيئاً، طوال سنوات من التّجاور نشأت علاقة فريدة من نوعها بين العائلتين ما جعلهما موضع سخرية من البعض، وحسد من البعض الآخر"¹⁴.

لكنّ شخصية جاكوب المتفهم للآخر يصطدم بممارسات زوجته التي ترفض هذه الفتاة، وتصدّر لها خطابات الإقصاء والعنصرية. وقد نقلت الرواية صراع الرّفص من خلال حكي الأفكار، فهو "يعرف جيّدا نظرة الاحتجاج تلك التي تطالعه بها زوجته، في كل مرّة يخصص قسطاً من وقته لربما وممارستها الدينية.. فهي تبقى بالنسبة إليها دخيلة"¹⁵.

مثّلت الرواية على المستوى السردى صراعات الأنا المسلم والآخر اليهودي من خلال ما رسمته خولة حمدي من أحوال أسرتين يهوديتين، تربطها علاقات بالمسلمين، إحداها تعيش في تونس، حيث ربما المسلمة التي تلقى الحنان والعناية من الأب جاكوب، وييدي تبنيها من الأسرة اليهودية تسامحا وتفتحاً دينياً، ولكنّ حدث ارتدائها للحجاب داخل البيت جعل الكثير من المشاعر والتصرّفات والمعتقدات تطفو على السّطح، وتظهر المضمّر من الطرفين. تغيّرت نظرة ربما للأب جاكوب الذي ربّاهَا واعتنى بها، فصارت تراه أجنبياً عنها بعد أن كان يمسك بيدها، ويترافقان إلى المسجد من كلّ جمعة، ينتظرها لتتمّ صلاتها ويحضر لها الحلوى، فتدخل علاقتهما مرحلة مختلفة تفصل فيها عنه، وتنمو شخصيتها الدينيّة المختلفة، وتبلور هويتها من خلال دروس المسجد، وهذا ما يتضح في الخطاب المنقول الذي تقدمه لنا الرواية في صوتهما أثناء المحاورّة¹⁶:

-أنا خائفة عليك.. لا أريد أن تذهب إلى النار.

-الشيخ يقول إن من لا يؤمن بدين الإسلام يذهب إلى النار... وأنا أحبك كثيرا ولا أريدك أن تذهب إلى النار.

- ولكن يا صغيرتي.. ألم تنفق أن لك دينك ولي ديني ونحن نؤمن بإله واحد؟

-ولكن الدين عند الله الإسلام".

هذه الخطابات المنقولة التي جسّدت تقبّل الآخر للأنا واحترام المعتقد، ولكنّ ربما بدافع حبّها له أرادت أن تقنعه، حينها "أدرك أنّ ربما دخلت مرحلة جديدة في تعاملها مع دينها، مرحلة النقاش ومحاولات الإقناع، وهو لم يتجهّز لمواجهة هذه المرحلة بعد"¹⁷. تتأزّم العلاقات بعد ارتدائها الحجاب في البيت، فتغادر زوجها تانا التي اعتبرتها دوما دخيلة، وتأخذ الأولاد في غيابه وتشرط لعودتها أن ترحل الفتاة، لذا تُرسل ربما إلى أخت جاكوب في لبنان، حيث عانت من العنف اللفظي والجسديّ من زوجها الفظّ.

أما الأسرة الثانيّة التي تكون أيضا حلبة صراع وتأجج لخطابات الكراهية والعنصرية، فتحمي في مدينة قانا بلبنان، حيث تنقل من خلالها الروائيّة ظاهرة الرّواج المختلط الذي مثّل سرديا هذه الصراعات الدينيّة والإيديولوجيّة. ويظهر هذا الاختلاط للعيان أمرا عادياً، وظاهرة مألوفة فيربط اليهودي بالمسلم والمسيحي بالتصراحي، ولكنّ التوغّل في هذه

العلاقات يظهر أنساقاً مضمرة سنوّحها من خلال الخطاب الغيريّ، حيث للتحدّث طبيعة مجتمعيّة إيديولوجيّة على قول باختين " إنّ الكلمة كظاهرة إيديولوجية بامتياز، تتطوّر باستمرار، وتعكس بأمانة كلّ التغيّرات والتقلّبات الاجتماعيّة. إنّ مصير الكلمة هو مصير المجتمع المتكلّم"¹⁸.

تمثل لنا الروائيّة-إذن- هذا الصراع بين الديانتين من خلال أسرة جاكوب اليهودية في تونس، ثم تنتقل لتبيّر فضاء آخر تتأكّد فيه هذه المهجنة، فضاء مقاوماً في جنوب لبنان حيث أحمد الذي أصيب في ساقه بقذيفة إسرائيلية بعد أن زرع برفقة صديقه حسان أجهزة التنصّت على العدو. ويتأجج الصراع في الرواية ووفق ما تسوقنا إليه الروائيّة بالجمع بين الأنا والآخر، فتضعهما جنباً إلى جنب في صورة مخالفة للمكرّس والمهيمن. ففي مدينة قانا تعيش أسرة يهوديّة هي من تسعف الشابّ أحمد الجريح على يد ندى.

ندى شخصية مختلفة تنمي الروائيّة الإنسانيّ فيها، وتظهره في أفعالها وأقوالها، فهي تميل إلى المقاومة اللبنانية، وتعاطف معها رغم أنّها يهوديّة، وتهتم لشأنها بما تقرّؤه عنها. تجلّى هذا التعاطف أيضاً في حكي أفكارها الذي ينقله السارد في تقديمه لهذه الشخصية " ندى شعرت بإعجابها بشباب المقاومة البواسل، ولكنها لم تستطع إعلان تعاطفها معهم واستهجانها للعدوان الإسرائيليّ على جنوب لبنان، فذلك كفيل بإعلان الحرب عليها داخل العائلة، حيث لكلّ رؤيته المختلفة للصراع اللبنانيّ الإسرائيليّ"¹⁹.

الرفض والعنصرية في الأسرة الأولى التي انطلق منها السرد هو ما تلقاه ربما من الزوجة في مقابل موقف نقيض متسامح من الأب جاكوب. هذا ما تجلّى على مستوى حواراته وأفعاله، فطلب الخروج لشراء عباءات جديدة على أن لا ترتديها في البيت، ولكنه موقفٌ بدأ تشكّل شخصيتها الدينيّة في إحداث بعض التغيّر عليه، وإن كان على مستوى الدّاخل، حيث فوجئ برفضها وقولها أنّه أجنبيّ عنها، وهذا ما أظهرته الرواية بنقل أفكاره وحواره الداخلي: "صعق جاكوب من كلماتها التي لم يتوقعها، فتسمّر مكانه من الصّدمة. أنا رجل أجنبيّ عنها. .. ربما كانت تانيا على حقّ في مخاوفها"²⁰. ثمّ توتّرت العلاقة بينه وبين زوجته بسبب حجائها وتصرفاتها المستفزة، وعليه أن يجد حلاً. ترفضها تانيا، وتقع تحت تأثير السلطة الاجتماعيّة لطائفها حيث تخشى أن يعتقد البعض أنّها من عائلتها، وظهورها بالحجاب الإسلاميّ بيدي تنازلاً وتأمراً من العائلة ضد أبناء طائفها²¹.

وأمام هذه الممارسات الراضية تعزل ربما، ولا تشاركهم في كثير من النشاطات الأسريّة كعدم خروجها معهم للنزهة، وتشعر بالخوف والغربة، "صارت نظراتها إليها فيها الكثير من الاستهجان والسخرية والغضب. الآن تدرك أكثر من أي وقت مضى بأنّها دخيلة"²². وعندما أخذت للعيش عند راشيل في لبنان، وهي مرحلة انتقاليّة مرّت بها ربما قبل أن تنتقل إلى العيش مع الأسرة الثانية التي تبهرها الرواية، تجاوزت الأمر النظرات كمظهر من مظاهر العنصريّة إلى استخدام العنف من الزوج، وإن " لم يكن الضرب يؤذيها بقدر ما تؤذيها إهاناته وكلماته القاسية، فألمها الجسديّ لا يقاس بألمها النفسيّ والروحيّ، إحساسها بالاضطهاد وانعدام الأمان يضاعف من غربتها"²³. فانغلقت على

نفسها وأقفلت الباب، وعانت من رعب شديد من اعتداء الزوج الذي كان يدّعي البراءة أمام زوجته التي كانت تحبّ ربما وتقف إلى جانبها.

هذه المعاناة والاضطهاد ألجأها إلى الكتابة والقراءة حيث وجدت فيهما متنفسا. عندما اكتشفت راشيل عدم ارتياحها، وتعرضها للضرب أخذتها إلى أسرة صديقتها سونيا حيث تقيم ندى، ولكنّ سونيا الأم تطلب من ربما المغادرة وإلا تدفع مصاريف البيت، وبما أنّها لا تقدر على ذلك تعمل في شؤون التنظيف والطبخ، إلى أن تنتهي حياة ربما باستشهادها الذي أثار أيا تأثير على ندى، وجعل الرواية تقوم عليها، وتنحو منحى آخر، وتُبيّر سرديا أفكارها وأفعالها، باعتبارها يهودية تعاني الاغتراب والقمع من بني جلدتها بعد إسلامها.

يبدو الفضاء منفتحاً على الآخر، ففي الأسرة الواحدة اليهودية الأخ ميشال راهب الكنيسة المسيحية هو من قطب جرح أحمد المسلم، وساعدت ندى اليهودية أحمد وحسان فقدّمت لهما الغطاء والحساء، ولم تحبر الشرطة ولا والديها خشية ردّ فعل الأم²⁴. ويحمل الخطاب قدرا من التسامح بين هذا المزيج من الديانات التي تتداخل عبر الزيجات، ويحترم كلّ طرف ممارسات الآخر، " فالطقوس الدينية تقتضي أن تنفرغ العائلة يوم السبت من كل أعمالها، فتبادل الزيارات واللقاءات الاجتماعية. وكان جورج يتقبل بصدر رحب كل ممارسات زوجته، مثلما تتقبل هي ممارسته الخاصة بالدين المسيحي"²⁵.

ولكنّ التوغّل في الأحداث يظهر أنساقا ثقافية مضرة، فندى نتيجة زواج مختلط رفضه الأهل بين أم يهودية وأب مسلم تعرّفا في تونس، انتهى الأمر بينهما إلى الطلاق، رغم قيامه على علاقة حبّ قوية. لذا هربت أمها سونيا بها وبأختها إلى لبنان "حين علمت أنّ حضانتها ستعهد إلى والدها لأسباب عنصرية بحثة في نظرها. تزوّجت سونيا من جورج وهو أرمني مسيحي، له ابن يدعى ميشال يدين المسيحية. عاشت الأسرة في تعاطف وحبّ رغم اختلاف الأديان، فالله واحد للجميع، وكذلك خالتها وخالها تزوّجا من المسلمين. لكن رغم هذا الاختلاط وما يبدو من تسامح، إلا أن تجربة سونيا وطلاقها جعلها تصاب بصدمة، "وأثر ذلك على نظرتها للأحداث التي تشهد بها الساحة السياسية في السنوات الأخيرة في منطقة الشرق الأوسط، فولّد لديها ضعينة تجاه المسلمين كافة"²⁶، وإن لم تقنع ابنتها بفكرتها.

رغم تصوير الرواية للحرية الدينية والفكرية في أسرة سونيا إلا أن ذلك لا ينفي وجود صراعات وصدّامات، عندما يتعلق الأمر ببعض الطقوس الدينية والاحتفالية، فإميل خطيب ابنتها دانا المسيحية أراد أن يكون الزفاف بعد عيد الميلاد الذي يحتفل به النصارى، وهذا ما لم يعجب سونيا الأم، حيث "كانت تتمنى زواجا يهوديا لكلّ منهما، تُحيي به تراث عائلتها وتقوي به انتماءها العقدي؟ وما تلاه من نقاش حادّ حول مراسيم الزفاف وفق الشعائر اليهودية أم النصرانية، ورفضها لزواج ابنتها في الكنيسة " ماذا سيقول عني أبناء طائفتي"²⁷. وهذا ما نقلته الساردة عبر حكي الأفكار، " فرغم ما تدّعيه من الانفتاح والتفهم، فهي تنفر من كلّ ما يختلف معها في العقيدة"²⁸.

طرحت الروائية صراع الأنا والآخر من خلال قضية الزواج المختلط بين المسلمين واليهود. التجربة الأولى هي لأمّ ندى اليهودية التي تزوّجت من مسلم ثمّ افترقا، رغم العاطفة التي جمعتهم يوما، وهذا ما انصرفت عنه الرواية لتبّر

نتيجة هذه التجربة في الحاضر، فترغب أم ندى في محو هذه الذكرى من ذهن ابنتها، حيث أبعدهما عن أبيهما فهما لا تعرفانه، وهذا ما نقله السارد بحكي أفكارها: " تريد منهما أن ينسيا أن لهما أبا مسلما " ²⁹، ومن خلال قولها في حديثها عن ابنتها: "إنّها لا تُقدّر خوفي عليها من المسلمين" ³⁰. هذا نموذج من تجربة الزواج المختلط. أمّا التجربة الثانية الحديثة التي تحكيها الرواية فهي زواج ندى اليهودية بأحمد المسلم، والصورة التي تناقشها خولة حمدي مقدّمة البديل ومنتصرة له باستخدام السرد، وهي عدم كفاية العاطفة التي تكون دافعا لتكوين مثل هذه العلاقات، ولكنّ ما تضره الذاكرة والعقل الجمعي والسلطة الاجتماعية هو ما يحرّك سلوكيات الفرد، فتبهُت عاطفة الحب وتظهر هذه الصور المتصارعة. من مظاهر هذه المضمرات الاحتراس من الآخر اليهودي في قانا عند لجوء أحمد الجريح إلى بيت أحدهم، والخوف من الوشاية ومن وجود خدعة. كما قدّمت معالم الآخر المختلف في مجموعة أيقونات في نظر الأنا عند أوّل لقاء: نجمة داود التي تدلت من سلسلة فضية، صليب من الحجم الكبير يتدلى من عنقه. وبيّن حكي الأفكار كما قدّمتها الروائيّة ردّة الفعل: " عيناه على نجمة داود التي تدلت من سلسلة فضية أحاطت عنقها، فانسعت عيناه دهشة. انتهت ندى إلى تغيير ملامحه، لكنها تجاهلت الأمر... فتابعها حسان بنظراته في استغراب متزايد.. إنّه يهودية " ³¹ وقد مُثل سرديا لهذه السلطة الاجتماعية بخطابات الآخرين التي نقلت صراعا متأججا حول هذه العلاقة : قالت دانا لأختها ندى : " - نسيت أن أخبرك... العريس مسلم.

مسلم؟ حدقت ندى فيها في عدم استيعاب ورّنت في أذنها كلماته من جديد " وأنت؟ ما نظرتك للمسلمين؟ هل تقبلين بالزواج من رجل مسلم؟" ³² ومثّل خطاب أم أحمد الراض والمتحسّر صوت سلطة المجتمع المسلم: " أخ يا أحمد، أخ يهودية؟ يا بني.. ماذا فعلت لك حتى تختارها يهودية؟ أخ يا قلبي آخ، ماذا فعلت في حياتي حتى أعاقب بهذا الشكل؟" ³³.

ومن خلال هذا العمل طرحت الروائية البديل لتعايش سلمى بين الطرفين، وهو حوار العقل بأسلوب إقناعي، حيث عمدت إلى إعادة النظر في رؤية الآخر، وإضفاء البعد الإنساني على الشخصيات وأعمالها وطريقة تفكيرها خلافا للصورة المكرسة. ودعمت هذه الرؤية بالمرجعية التاريخية وصوت بعض الوقائع، كاستحضارها لأحداث مجزرة قانا عناقيد الغضب سنة 1996، وما خلفته من مئات القتلى من النساء والأطفال لتوظفها فتقنع القارئ، وتنقل رؤية الشخصية اليهودية للآخر الصهيوني اتكاءً على هذه الأحداث، موضحة الفرق بين الديانة اليهودية والصهيوتية باعتبارها كيانا غاشما، " لا تزال ندى تذكر تلك الحادثة التي تركت في نفسها الفتية أعمق الأثر. هي الفتاة اليهودية ذات الست عشر عاما. أيقنت منذ ذلك الحين أنّ المقاومة لا تلام على شيء ممّا تفعله لتحرّر الأراضي المغتصبة، وأيقنت أيضا أنّها وإن كانت يهودية، فإنّها لن تنتمي إلى الفكر الصهيوني، فاحتلال أرض الغير وقتل المدنيين العزل هو دون شكّ عمل إرهابي" ³⁴. وهي أعنف مجزرة ضمن خمس مجازر إسرائيلية (20 ألف قذيفة و 500 غارة جوية) إلى غيرها من خطابات مسرودة كالمسيرة الشعبية في لبنان في 21 مايو سنة 2000 ³⁵.

تظهر الخطابات المنقولة على لسان الشخصيات تصحيح المكرس الذي تسعى إليه خولة حمدي، كالحوار الدائر بين أحمد وندى بعد أن يسألها عن سبب مساعدتها له وهي يهودية، فتجيبه:

"- وما شأن دينتي بالعمل الإنساني؟ ألا يحنك دينك على الرحمة والرأفة، وتقديم يد المساعدة إلى من يحتاجها، مهما كان انتماءه وعقيدته؟ أليست تلك رسالة جميع الأديان السماوية؟

- لا عليك، فما يحصل حولنا ينسينا أننا نعبد إلهًا واحدًا وإن اختلفت التفاصيل والملابسات؟"³⁶.

وينقل كلامهما صوتان متناقضان صوت الكائن والممكن، وهذا ما أودعته خولة حمدي في حكي أفكار أحمد الذي استغرب تصرفها نتيجة الفكرة الطاغية لديه عمّا يضمه اليهود من عداً للمسلمين. ومن خلال شخصية ندى، قدّمت الرواية صورة بديلة عن الفتاة اليهودية، فهي تحافظ على غطاء الرأس والزي المحتشم والعادات والتقاليد، فأظهرتها بنوع من التدين.

نقلت خولة حمدي الصراع بين الأنا والآخر إلى مستوى الدّاخل وهو مرحلة فاصلة في حوار العقل في الرواية، وهذا ما جسّدته حيرة ندى في تبنيّ الدين الجديد -الإسلام- وصراعها بين عاطفتها واختلافها عن أحمد عقائديًا. هذه معركة الوعي التي خاضتها الروائية مستندة إلى ثغرات في الديانة اليهودية كالنجاسة الأبدية للمرأة، بمقارنات بين الإسلام وبقية الأديان في نظرتها إلى المرأة³⁷، ممّا جعل ندى تتعمّق في رحلة الدّاخل لتختار الهوية التي تقتنع بها.

مثّلت الرواية أدبيا باستحضار خطابات الآخرين الحاضرة في كتب لعلماء غربيين اعتنقوا الإسلام: كتاب موريس بوكاي: التوراة، القرآن والإسلام، حديثه عن الإعجاز العلمي كبقاء جثة فرعون عبرة أكد العلم أنها ماتت غرقاً، وكان هذا العالم ضمن فريق التشريح. قراءتها لكتاب روجي غارودي "رحلتي وحيدا عبر هذا القرن" وهي سيرته الذاتية ليخلص إلى الإسلام، مواجهته للمنظمات الصهيونية وإصداره بيان ضد مجازر لبنان سنة 1982 يدين إسرائيل، تشكيكه في الأرقام الشائعة حول إبادة يهود أوروبا في غرف الغاز على أيدي النازية، وبالحرقة ممّا جعل المحاكم الفرنسية تحاكمه³⁸.

تجلى كذلك حوار العقل في الرواية في استخدام أسلوب الرسائل عند ندى لإسماع صوتها، وهي بمثابة مذكراتها التي كانت ترسلها لأحمد الغائب عنها في تلك الفترة والمجهول مصيره. فاعترافها بالإسلام بعد رحلة التّعرف عليه، ونطقها بالشهادتين، ثمّ إعلان إسلامها ورفض العائلة لذلك، وخشية أمّها سونيا من طائفها الاجتماعية وسخريتها من أنّ تربيتها لم تُجد. وما تعرّضت له من الضغط المادي والنفسي عند إسلامها من أمّها زاد حاجتها لهذه الرسائل للاعتراف والتنفيس. تسبّب إسلامها في طردها من البيت، وإجبارها على السفر إلى عائلة أبيها المسلم في تونس. وفي هذه المرحلة من الرواية تمّ التركيز على مناقشة الذات، وتوسّلت إلى ذلك الروائية بالخطابات المنقولة لتسأل نفسها عن قضية إسلامها من وجهة نظر أمّها وتجيّب: "ولكنّي أتساءل أيضا، ماذا لو تحولت سماح مثلا- حفظها الله من كلّ شرّ - إلى المسيحية أو أي دين آخر؟ كيف كانت لتعاملها خالتي سعاد؟ أشكّ في أنّ أي مسلمة قد ترضى بذلك لأولادها أو تقبلهم تحت سقفها بعد ارتدادهم"³⁹، متفهّمة الآخر رغم ما تعانیه منه.

تطرح الروائيّة عن طريق ندى مجموعة أسئلة عن الإسلام تصوّر صوتها الداخليّ وأصوات المعارضين له. برز الأوّل في حكي أفكارها وتساؤلاتها عن واقع المسلمين، إذ تقول عن إسلام أبيها سالم الذي لم يستقبلها في بيته، وهو رأي الآخر: "هل هو إسلام بالوراثة فارغ من القيم والأخلاق؟ أيّ دين كان سيورثه لها أب لا يبالي بالرحم المعلّقة بعرش الرّحمن"⁴⁰. أمّا الثاني فمن خلال بعض الأسئلة التي طرحت عن النبي ولا زالت تُطرح كزواجه بعائشة الذي اعتبره الغرب انتهاكا للطفولة، وقضية الحجاب، فتتولّى ندى البحث والإجابة ردّا على تزييف بعض الحقائق عن الإسلام⁴¹.

جسّدت رواية "في قلبي أنثى عبرية" صراعا متأججا بين الأنا والآخر، حاولت أن تمثّل الروائيّة سرديا باستحضار خطابات الآخرين التي نقلتها عبر العلاقات الأسريّة بين المسلمين واليهود، وبحكي الأفكار والالتفاف نحو الدّاخل، متّخذة البيت بؤرة الصدام، والغرفة مكان الانغلاق والتقوقع على الذات، والأسرة فضاء الرواية لفضح المسكوت عنه.

3- غربة الفضاء ونموذج المهاجر المثقف في "غربة الياسمين":

نبحث في هذه الجزئيّة من الطرح عن الطريقة التي تناولت من خلالها الروائيّة حياة المهاجرين، ولماذا جعلتها مادة لكتابتها؟ ألأّمها تونسية مغتربة عاشت في فرنسا حياة الأقليات كمتقفة متحصّلة على شهادة الدكتوراه من الجامعة الفرنسيّة، أم لأّمها شغلته قضايا الهجرة والأقليات فيما تتعرّض له من تمهيش واتهام بالدونيّة وعنصريّة ضمن المجتمع الغربيّ، فكان خطابها إعادة لرسم خارطة السّلطة التي قمعت هذه الأقليات؟

تحكي الرواية قصّة المغترب العربيّ بكلّ أشكاله، وإن بأزّت المهاجر المثقف بنقل رؤيته للآخر ورؤية الآخر له، وصراع التهميش الذي يعاني منه، وهجنة الفضاء وإشكاليّة الاندماج باعتباره من الأقلّيّة المسلمة التي قدّمت إلى فرنسا لإتمام الدّراسة، أو الحصول على عمل أو تحسين ظروف المعيشة، وما تتعرّض له من عنصريّة.

تنقل الرواية خطابات الآخرين وإشكالية التّواصل في خطاب قاعم، وتستحضر أصواتهم من خلال الأفكار والأقوال. وتطرح إشكاليّة الاندماج في المجتمع الغربيّ وتحديدًا بفرنسا، وتقدّم نماذج لأشكال منه تتوزّع في هذا العمل بين أكثر من شخصيّة. أوّلا رنيم شاكر المحاميّة التي قررت ألاّ ترتبط بعربيّ بعد دراستها بالقاهرة، فهي تبحث عن الرومنسيّة الغربيّة. تعلّقت بميشال الفرنسيّ في مكتب العمل وتبرّعت له بكليتها، وانتظرت منه الزواج، لكنّه يرى فيه قيّدا، فقدّمت استقالته وابتعدت عنه وأرادت أن تثبت ذاتها عبر عملها، وهي من دافعت عن عمر الرّشيدّي الذي اتّهم بالتفجير الإرهابي.

أمّا النموذج الثاني فتمثّله ياسمين عبد القادر، حيث يتناوب السرد بضمير الغائب بينها وبين شخصيّة رنيم. تونسية قدّمت إلى ليون لإتمام دراستها باحثة عن شركة لاحتضان مشروعها في علم الاجتماع لليل شهادة الدكتوراه. تنزل للعيش عند والدها الذي لم يعد تربطه علاقة بأّمها بعد الطلاق وزواجه ثانية. تجد هذه الشّخصيّة صعوبة في التّأقلم، وتطرح صراع الهويّة بشكل حادّ، حيث يمارس المجتمع الغربيّ سلطته من خلال مؤسّساته، كالشركة التي قدّمت

ملفها إليها حيث رفضت رغم توفر كل الشروط، ولكنّ حجابها شكّل مانعا، وهذا ما أظهرته الخطابات المنقولة في حوار بينها وبين من استقبلتها في الشركة: "لا أعلم بالضبط ماهي القناعات التي تملي عليك هذا اللباس بالذات، لكن في إطار العمل أن يطلب منك المدير الالتزام بزي رسمي في المكتب أمام قانون داخلي. .. أيهما سترجحين؟ - كنت سألتزم بلباس رسمي لائق يحترم قوانين الشركة، لكن دون التنازل عن الحجاب. - لو وضعتك اللجنة أمام خيارين: الحجاب وتمويل بحثك، هل تضحّين بمستقبلك المهني وترفضين فرصة نادرة من أجل قطعة قماش؟"42.

ويظهر في هذا الحوار السلطة والهيمنة التي تمارسها مؤسسات العمل فيما تمليه من شروط تمسّ ثوابت الهوية، فكان هذا النموذج بين مطرقة لقمة العيش والتحصيل العلمي الذي يفرضه السوق الغربيّ وسنديان الهوية. وهنا تتجلى العنصرية في التوظيف بسبب كون ياسمين مسلمة متمسكة بحجابها رغم توفر كلّ المواصفات. العنصرية التي تمثّل النظام الاجتماعي المعقد للهيمنة المبنية على أساس عرقي، وانعدام المساواة الناتج عنها في المجتمع"43. ويشير النصّ أيضا إلى إشكالية الهوية الوطنية عند الفرنسيّ، هل الفرنسيّ المسلم فرنسيّ حقا، وهل اعتناقه لدين يحتضن الإرهاب يتعارض مع فرنسيّته؟. وهذا يؤكّد خطاب الكراهية لهذا الدين حتى من أبناء الوطن.

تستحضر الروائية خطاب الواقع لتضفي مصداقية وشرعية على الرواية من خلال القانون الذي أصدره الحبيب بورقيبة حول منع الحجاب الذي اعتبره لباسا طائفيا، والتضييق على المحجّبات بما سمته سنوات الجمر، واستفادة جاك شيراك من تجربة تونس لاقتراح قانون جديد يمنع ارتداء العلامات الدالة على الانتماء الديني، فتحول "مبدأ اللائكية الذي جاء في الأصل لتحرير الدولة من سلطة الكنيسة والمساواة بين الأفراد بغضّ النظر عن انتماءهم الدينيّة إلى أداة مسخ لهوية الأفراد... وفي فبراير 2004 صوّت البرلمان الفرنسي لصالح هذا القانون بأغلبية ساحقة معلنا الحرب على الحجاب"44.

تطالع شخصية ياسمين المتشبتة بهويتها كتبا تعكس انشغالها وانشغال خولة حمدي في إطار إشكالية المثقف المغترب ككتاب أمين معلوف "الهويات القاتلة"، وهو فرنسي الجنسية لبناني الأصل، هذا الكتاب الذي قال عنه ركب المترو "كتاب يدعو إلى التفكير، خصوصا لمن يعيش غربة الوطن"45، وهذا ما أسقطته ياسمين على أخويها. ومن هذه الكتب التي تشغلها أيضا "مسلمو الغرب ومستقبل الإسلام" لطارق رمضان الذي نقلت ياسمين صوته في تلخيصها لوجهة نظره: "الكاتب يقول إنّ الغرب يغدّي في مجتمعات العالم الثالث عقدة نقص من حيث تحلّفها الحضاري، ثمّ يزرع الشكّ في الموروثات العقديّة والدينيّة. وهذا ما يدفع بعض الأفراد إلى الانتقام لدينهم ومعتقداتهم"46. وهي مؤلفات وأصوات تضفي شرعية ومصداقية على الرواية وتصبغها بصبغة واقعية معرفية.

تشبه هذا النموذج شخصية عمر الرشيديّ العامل في المختبر على أبحاث علمية، فهو يمثّل نموذج المثقّف علميا الذي يتشبّه بهويته، ويرفض الانسلاخ عنها على خلاف شخصية سامي كلود. يناقش عمر ياسمين في ما تقرأ في المترو للحظات. وهو شخصية تُؤثر العزلة والانطواء على حياة زملائه المادية، يقضي أوقاته في عمله في المختبر، وهو

وقوعته الافتراضية، ولا يشاركون حفلاتهم لما فيها من سكر ومجون. اجتهاده في مشروع بحثه جعل زميله صامويل وكريستوف يميكان مؤامرة ضده وحول اختباره.

جسد الخطاب الغيريّ أصوات ورؤى الآخر تجاه هذا النموذج، اختصرها وليد الراجحي الجزائريّ المغترب في قسم المحاسبة في الشركة ذاتها في قوله: " اسمع في المرّة الماضية سمعت الكثير من التعليقات. بعضهم يقول إنك إنسان معقد ومنغلق لا يعرف معنى المرح.

- حقا يقولون ذلك؟

- هذا ليس رأيي.

- لكنك تحتاج إلى التعامل مع هذا المجتمع، وتندمج فيه حتى لا تعيش على هامشه. ستظل على هامشه يا صديقي طالما لم تتنازل عن كل مبادئك. ما دمت لا تحترم قواعد اللعبة، لا تدخن، لا تشرب الكحول، لا تصحب النساء، لا تلعب القمار، فلن تندمج في نظرهم أبدا"⁴⁷. وتتعدّد الرواية عند اتهام عمر الرشيدى بتفجير مختبر الكيمياء، ومثّلت الاتهامات التي وجهت له نظرة الغرب للمهاجر المسلم. وتشتبك العلاقات، فتدافع المحامية زينم شاكر عنه باحثة عن أدلة براءته.

كما تقدّم الرواية نموذجاً آخر مختلفاً للمثقف المغترب، هو نموذج المنسلخ من هويته وأصله، وهو والد ياسمين التونسيّ الذي طلق والدتها بعد رفضها العيش معه في فرنسا، وتزوج من إيلين الفرنسيّة، واكتسب الجنسيّة. غير اسمه إلى سامي كلود بعد أن كان كمال عبد القادر، بروفسور شهد له العالم الغربيّ بتفوقه في أبحاثه العلميّة. تقول زوجته إيلين معلّقة على تغيير اسمه ردّاً على استنكار ابنته: "يحتاج المرء الاسم المناسب في المكان المناسب، لا أريد الإهانة، لكنّ اسماً فرنسيّاً يسهل الاندماج ويساعد على شقّ الطريق خصوصاً في مجال البحث العلمي الذي يخوضه والدك"⁴⁸. استنكرت ياسمين هذا الموقف، وهذا ما نقلته الرواية من خلال حكي أفكارها "فكرت ياسمين في ارتياع، هل تحتاج هي أن تكون جاسمين كلود حتى تجد تمويلاً لبحثها؟"⁴⁹.

تتشابك العلاقات بين هذه النماذج، على عادة خولة حمدي في سرديتها، فتشارك زينم وياسمين في شقّة مؤجّرة وتصيران صديقتين، ويحدث انفجار يهزّ باريس في المختبر الذي يعمل به عمر الرشيدى، وهو على وشك إنهاء مشروعه حول "الاندماج البارد"، الأسطورة العلميّة التي سيحقّقها، ولأجل تفوقه حيكت ضده مؤامرة للتخلص منه، وسُرق ملف المشروع. يدخل الرشيدى السجن بعد تفجير شركة الكيمياء، لكونه المشتبه الوحيد بعد أن كاد الحادث يودي بحياته، ونجا منه بتسوّه، بعد أن وُجد تحت الأنقاض. تدافع عنه زينم شاكر بكلّ ما أوتيت من قوّة، فتجمع الأدلة لتبرئته ضدّ ادّعاء زميله الفرنسيين بأنّه سرق ملف دراستهما الأصليّة، وفجّر المختبر لإخفاء آثار البحث. ولكنّ الرواية تنتهي نهاية مفتوحة بصدور الحكم عليه بالسجن عشرين عاماً، وعدم يأس زينم بعد أن كشفت شهادة عاملة في المختبر خيوط المؤامرة ضده.

تنقل الرواية بامتياز صراعات متأججة بين الأنا والآخر، سخرية وعنصرية وإقصاء إلى أن تصل هذه الصراعات إلى المؤامرة. مثلت شخصية باتريك بسلوكها السخرية من لباس ياسمين، وذلك عند لقاءها في المصعد معتقدا أنّها عاملة تنظيف "أحست بوجهها يشتعل، عاملات التنظيف؟ هل يسخر منها. كان باب المصعد قد فتح مع وصوله إلى الطابق الثامن. رمته بنظرة حادة، وهي تقول في برود:
-مقابلتي تخص رسالة الدكتوراه في العلوم الاجتماعية"⁵⁰.

شخصية باتريك الذي يكره المسلمين ويرى في الإسلام حسب ما رآه في طهران احتقارا للمرأة، وتعدّيًا على حرّيتها. وهذا ما نقلته الروائية بحكي أفكاره "كان يلدّ له أن يقع على تلك الثغرة التي تشوّه صورة الإسلام والمسلمين الذين يتبجحون على مدار الساعة بمخالفات مجتمعاتهم المحافظة لحاجة في نفسه"⁵¹.

كما تكشف الرواية عن مشاكل الآخر الداخلية من أهمّها الانتحار في الشركة وفي المجتمع الغربي، حيث تقدّمه الروائية من خلال صوت ياسمين الباحثة في علم الاجتماع التي تحاول دراسة حالة الموظفة التي حاولت الانتحار. كما تعرضه من خلال نموذج آخر هو إيلين زوجة سامي كلود، التي حاولت الانتحار بعد قرار الانفصال بسبب الهوة بينها وبين زوجها رغم نجاحه العلمي.

ويزيد من تأجج الصراع ضدّ هذه الأقلية أن تشترك مجموعة من السلطات في تهميشها وتوجيه خطاب الكراهية والإقصاء لها، بل وتجرّمها فيتعدّى الأفراد إلى المؤسسات الفاعلة، كالسلطة المتمثلة في المحقّقين اللذين يتّهمان عمر الرشيدى: "يكفي أن يكون الرجل الذي تحت الأنقاض من أصل عربيّ، ليكون مشتبهًا به"⁵². يكفي أن يكون مسلما ملتزما ليكون مشروع إرهابي، والضغط النفسي للنائب العام على المحامية رنيم لإقناعها بكون عمر الرشيدى إرهابيًا. والمحكمة والمخلفون التسع والمدّعي العام والرأي العام، "بل لعلّها تقرأ في وجوه بعضهم علامات التّشفي، كأثمّ جاؤوا لإنزال أشدّ العقوبات بهذا العربيّ الإرهابيّ الذي أقلق راحتهم في عقر دارهم"⁵³. وكذا نشرات الأخبار والبرامج الاجتماعية، وعضو البرلمان الأوربيّ، واليمين المتطرّف، وسلطة وسائل الإعلام المرئية والمكتوبة التي ردّدت بعد الانفجار الذي ربطته بالإسلام والمهاجرين العرب والأفارقة قائلة: "أوقفوا الإرهاب، أوقفوا الهجرة المغاربية والإفريقية، نظّفوا مجتمعنا من الخثالة المسمومة"⁵⁴.

عرضت الرواية نماذج مختلفة للمثقف المغترب الذي يصطدم بقضية الهوية والانتماء، عبر فضاء الأسرة وسوق العمل من خلال الشركة، ثمّ تحويل القضية إلى المجتمع المدنيّ والرأي العام، لأنّها ليست قضية أفراد بل مجتمعات وسياسيتها المتّبعة. واكتفت خولة حمدي بتقديم الصورة ونقل أصوات المغتربين، وإنّ أهدت روايتها ببصيص أمل يتراءى للمحامية بعد مستجدّات في القضية.

4-خاتمة:

نخلص بعد هذا التّفصيل إلى مجموعة من النتائج نوجزها في الآتي:

- تشترك الروايتان في تناول مسائل الأقلية المسلمة وقضايا التهميش لتجعلها مركزا لا بدّ من إسماع صوته والالتفات له، لتذهب صاحبة العملين إلى أنّ " التواصل الجمعي بين الثقافات والشعوب والمجتمعات هو التحرر الإنساني الحقيقي الذي تبشّر به مقاومة الإمبريالية"⁵⁵.

- مثلت الأسرة فضاء متأججا بالصراع والصدام، أسرة جاكوب بجزيرة التونسية وأسرّة ندى اليهودية بجنوب لبنان بقانا، ومن خلالهما يتناوب السرد. أمّا في غربة الياسمين التي تدور أحداثها في فرنسا، وإن كنا لا ننكر أهميّة هذا الفضاء في تأكيد الهجنة، فإنّ سوق العمل والشركة شكّل كذلك حيزا بارزا استقطب المثقف المغترب ووضعه جنبا إلى جنب مع الآخر.

- حاولت الروائية في أنثى عبرية إعادة رسم رؤية الآخر للأنا من جانب إنسانيّ، وسوء توظيف السلطة الاجتماعيّة والدينيّة على مستوى الخطاب ملغية فواصل الدين، بالاعتماد على العلاقات الإنسانيّة والعواطف الساميّة للقضاء على الصورة النمطيّة، وتصحيح المكرس.

- طرحت أنثى عبرية فكرة الزواج المختلط طريقا لفضح المضمّر، والانتهاكات الممارسة ضدّ المسلمين من عنف لفظي وجسدي. وسعت خولة حمدي خطابيا لتحدث تغييرا في الوعي الجمعيّ بما طرحته من بعد إنسانيّ في عملها، وتوسّلت لذلك أسلوبا إقناعيا استحضرت فيه شهادات علماء الغرب، وواقع المسلمين، وما جاء في سنّة النبيّ ﷺ، لتتخذ هذه الخطابات بعدا حجائيا، فيسلم إثره الأب جاكوب وابنته، وحتىّ سونيا التي أبدت ضغينة ضدّ المسلمين، بل يتعدّى هذا الأسلوب العلاقات الداخليّة في النصّ لينفتح على القارئ ليس فقط من أجل سرديّة اللرد بل ليشغل على سرديّة الإقناع.

- تشبّعت خولة حمدي التونسيّة التي تلقت دراستها العليا بفرنسا بقضايا المغتربين وما يتعرّضون له، طارحة مسألة صعوبة الاندماج عند الفئة المثقفة التي تحمل الشّهادات العليا. وأدّى تعدّد الأصوات والخطاب الغيري في الرواية إلى نقل واقع المغترب عند أكثر من نموذج بين المتشبّث بهويته الذي يحمل قلق الانتماء، والمتنكّر لها والمنسلخ من جذوره. تمكّنت الرواية من خلال النموذجين المدروسين من أن تطرح رأيها بقلم خولة حمدي في ثقافة التّسامح، وتجاوز الأديان، وأن تردّ على تطرّف الآخر بسرديتها ومحاماتها للأقوال والأفكار باختلافاتها وتناقضاتها، وفضح السلطات الاجتماعيّة، وإسماع صوت الأقلّيات والمهمّشين، لتكون الرواية جنسا مقاوما يمتلك القدرة على الردّ وصناعة العالم وإن كان على مستوى الخطاب وهو جهد المقلّ.

5- الهوامش:

¹ - جينز بروكمير - دونالد كربو: السرد والهوية-دراسات في السيرة الذاتية والذات والثقافة، تر: عبد المقصود عبد الكريم، المركز القومي للترجمة، ط1، 2015، ص 18.

² - نفسه، ص 19.

- 3 - نديم بيطار: حدود الهوية القومية، بيسان للنشر، بيروت، ط2، 2002، ص17.
- 4 - مفهوم الآخر في اليهودية والمسيحية، تأليف جماعي، رقية العلواني وآخرون، دار الفكر، دمشق، ط1، 2008م، ص172-180.
- 5 - ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، مارس 2013، ص15.
- 6 - نفسه، ص18.
- 7 - نفسه، ص24.
- 8 - إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، تر: كمال أبو ديب، مكتبة بغداد، دار الآداب، بيروت، ط4، 2014، ص328.
- 9 - نفسه، ص270.
- 10 - ينظر، نفسه، ص274.
- 11 - جينز بروكمير - دونالد كربو: السرد والهوية، ص32.
- 12 - ينظر: نفسه، ص97-98.
- 13 - الخطاب والسلطة: توين فان ديك، تر: غيداء العلي، مراجعة وتقديم: عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ع 2419، ط1، 2014، ص29.
- 14 - خولة حمدي: في قلبي انثى عبرية، موقع صفحة كتب، [www.facebook.com.the.books](http://www.facebook.com/the.books)، دار كيان للنشر والتوزيع، الهرم، ص17.
- 15 - الرواية، ص20.
- 16 - الرواية، ص29.
- 17 - الرواية، ص30.
- 18 - ميخائيل باختين: الماركسية وفلسفة اللغة، تر: محمد البكري، و يمنى العيد، دار توبقال، المغرب، ط1، 1986، ص213.
- 19 - خولة حمدي: في قلبي انثى عبرية، ص37.
- 20 - نفسه، ص84.
- 21 - ينظر: نفسه، ص124-126.
- 22 - نفسه، ص128.
- 23 - نفسه، ص236-237.
- 24 - نفسه، ص49-50.
- 25 - نفسه، ص89.
- 26 - نفسه، ص69، 92.
- 27 - نفسه، ص130.
- 28 - نفسه، ص130.
- 29 - نفسه، ص135.
- 30 - نفسه، ص134.
- 31 - نفسه، ص44.
- 32 - نفسه، ص152.

- 33 - نفسه، ص 192.
34 - نفسه، ص 38.
35 - ينظر : نفسه، ص 456.
36 - نفسه، ص 62.
37 - ينظر: نفسه، ص 315.
38 - ينظر : نفسه، ص 113-114.
39 - نفسه، ص 563.
40 - نفسه، ص 544.
41 - ينظر : نفسه، ص 578 و 315.
42 - خولة حمدي: غربة الياسمين، موقع صفحة كتب، ص 19.
43 - فان ديك: الخطاب والسلطة ص 220"
44 - خولة حمدي: غربة الياسمين، ص 20.
45 - نفسه، ص 17.
46 - نفسه، ص 34.
47 - نفسه، ص 26.
48 - نفسه، ص 38.
49 - نفسه، ص 38.
50 - نفسه، ص 55.
51 - نفسه، ص 114.
52 - نفسه، ص 69.
53 - نفسه، ص 118.
54 - نفسه، ص 144.
55 - إدوارد سعيد: الثقافة والامبريالية، ص 274.

6- قائمة المراجع:

- 1 - جينز برو كميير - دونالد كريبو: السرد والهوية-دراسات في السيرة الذاتية والذات والثقافة، تر: عبد المقصود عبد الكريم، المركز القومي للترجمة، ط1، 2015.
- 2 - نديم بيطار: حدود الهوية القومية، بيسان للنشر، بيروت، ط2، 2002..
- 3- تأليف جماعي، رقية العلواني وآخرون : مفهوم الآخر في اليهودية والمسيحية، دار الفكر، دمشق، ط1، 2008م.
- 4- ماجدة حمود : إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، مارس 2013.
- 5 - إدوارد سعيد : الثقافة والإمبريالية، تر: كمال أبو ديب، مكتبة بغداد، دار الآداب، بيروت، ط4، 2014.
- 6- توين فان ديك: الخطاب والسلطة، تر: غيداء العلي، مراجعة وتقديم: عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ع 2419، ط1، 2014.
- 7- ميخائيل باختين: الماركسية وفلسفة اللغة، تر: محمد البكري، و معنى العيد، دار تويقال، المغرب، ط1، 1986.

⁸ - خولة حمدي : - في قلبي انثى عبرية، موقع صفحة كتب، [www.facebook.com.the.books](http://www.facebook.com/the.books)، دار كيان للنشر والتوزيع، الهرم.

- غربة الياسمين، موقع صفحة كتب.